

دولة الإمارات العربية المتحدة

جامعة الوصل

مجلة جامعة الوصل

متخصصة في العلوم الإنسانية والاجتماعية

مجلة علمية محكَّمة - نصف سنويَّة

(صدر العدد الأول في 1410 هـ - 1990 م)

العدد الثاني والستون

البريد الإلكتروني: research@alwasl.ac.ae

الموقع الإلكتروني: www.alwasl.ac.ae



62



ذو القعدة - يونيو

1442 هـ / 2021 م



مَجَلَّةُ جامعة الوصل

متخصصة في العلوم الإنسانية والاجتماعية

مجلة علمية محكَّمة - نصف سنويَّة

تأسست سنة ١٩٩٠ م

العدد الثاني والستون

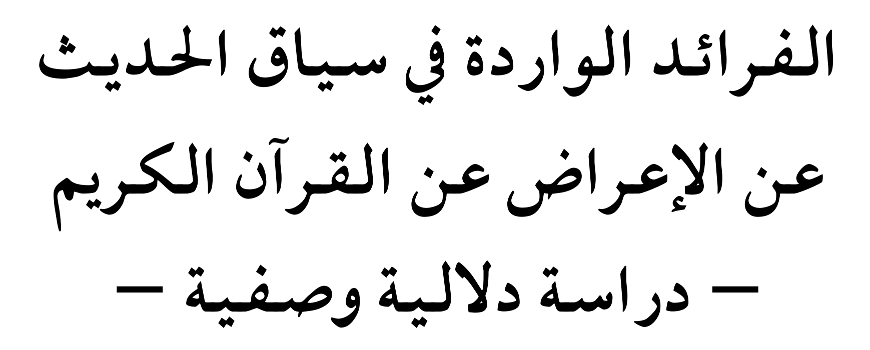
ذو القعدة ١٤٤٢ هـ - يونيو ٢٠٢١ م

ردمد: ١٦٠٧-٢٠٩x

المجلة مفهرسة في دليل أولريخ الدولي للدوريات تحت رقم ١٥٧٠١٦

البريد الإلكتروني: awuj@alwasl.ac.ae, research@alwasl.ac.ae

المحتويـــــــــات



الفرائد الواردة في سياق الحديث عن الإعراض عن القرآن الكريم – دراسة دلالية وصفية –

The Unique Discourse about Turning away from Holy Quran: A Descriptive, Pragmatic Study

د. محمود علي عثمان عثمان

جامعة الملك فيْصل – المملكة العربية السعودية

Dr. Mahmoud Ali Othman Othman

King Faisal University - KSA

https: //doi.org/10.47798/awuj.2021.i62.07



ملخص البحث

يهدف البحث إلى: الكشف عن ظاهرة التمكّن الدلالي للفرائد القرآنية الواردة في سياق الحديث عن القرآن الكريم، وهي ظاهرة تعكس إعجازه البياني في أسلوبه، ولتحقيق هذا الهدف فقد سلك الباحث المنهج التحليلي اللغوي، والمنهج الوصفي، وخلصت الدراسة إلى أنّ ظاهرة التمكّن الدّلالي للفرائد القرآنية ترتبط بالعلاقات بين البُنى المتوالية للسورة -الواردة فيها الفريدة -بأكملها على وفق: مناسبة دلالة الفريدة معجميا، لسياقها الذي استدعاها، وهاتان العلاقتان مجتمعتان مكّنتا الفريدة دلاليا من التفرّد في سياقها بحيث تؤدّي المعنى المراد كله بدقة ولا يغني غيرُها من مرادفاتها غناءَها، ليثبت بذلك بناؤها واتّساقها الفني وفيضها المتجدد من الظلال والمعاني والدلالات التي تتّسع وتنمو وتفيض وتتجدّد بتدبّر هذه الفرائد، وأوصت الدراسة بمواصلة رَصْد ظاهرة التمكّن الدلالي للفرائد القرآنية الواردة في موضوعات أخرى، وتجديد قراءتنا للقرآن الكريم ومدارسته بما يحقق تدبّره.

الكلمات المفتاحية: التمكّن الدّلالي، الفرائد.

Abstract

The purpose of the research is to highlight the phenomenon of the semantic mastery of the Quranic uniques in the context of the Holy Quran, a phenomenon that reflects its graphic miracles in its style and aims to reveal its significance to the purposes of the Holy Quran and its Surah's, to achieve the aim of the study: the researcher used the linguistic analytical method and the descriptive method, the study concluded in its results to phenomenon of the artistic semantic consistency of the Qur'anic authors is related to the relations between the successive structures of the surah - in which the unique - whole is presented according to: a unique and lexical connotation of the context in which they were called, the purpose of the sura and the purposes of the Qur'an, so that the meaning of the whole meaning accurately and does not enrich other synonyms singing, to prove the building and artistic consistency and its renewed flow of shadows and meanings and meanings that expand and grow and overflowing and renewed by meditating in these uniques, the study recommended the continuation of monitoring the phenomenon of semantic mastery of Quranic Uniques mentioned in other subjects and renewal of our reading of the Holy Quran and study it to achieve its meditation.

Keywords: The semantic mastery, Uniques.

المقدمة

القرآن الكريم معجزة النبي ﷺ الخالدة، لا تنقضي عجائبه ولطائفه وأسراره، ولا تفنى غرائبه، أنزله الحكيم الخبير بميزان حكيم دقيق، فجاء في ذروة الفصاحة والبلاغة إلى الحدّ الذي عجز عنه جميع الناس، فكل حرف وكل لفظة فيه لا يغني غيرُها عنها، وقد هداني الله تعالى إلى البحث في كنز من كنوز القرآن الكريم المتعلقة بإعجازه اللغوي والبياني، وإلى أسلوب من الأساليب المعجزة للتعبير القرآني، وهي الألفاظ الفرائد التي ذُكرت مرة واحدة في القرآن الكريم دون أن يتكرّر جذرها اللغوي على أي حال من الأحوال، أو صيغة من الصيغ، وكانت هناك ألفاظ قريبة من معناها تشترك معها في الحقل الدلالي، ولكنْ لما آثر القرآن الكريم استعمال تلك الفرائد دون ما يقاربها من الألفاظ في المعنى، كان لذلك الإيثار سرّ بلاغي وإعجاز بياني جاء البحث ليكشف عنها بحول الله تعالى، مثبتا تمكّنها الدلالي من موقعها في السياق القرآني الواردة فيه.

وقد عدَّ علماء الإعجاز استعمال القرآن الكريم لأفصح الألفاظ بأحسن المواقع، متضمّنة أسلم المعاني، وأعلى الوجوه دلالة، من مخائل[1] إعجاز القرآن[2]، حتى أوضح الخطّابي هذا العلم بقوله: «واعلم أنّ القرآن إنما صار معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمّنا أصح المعاني»[3].

١- مخائل: علامات، دلالات، ينظر: إبراهيم أنيس-عبد الحليم منتصر-عطية الصوالحي-محمد خلف الله أحمد، المعجم الوسيط، مادة (خيل)، مجمع اللغة العربية-مكتبة الشروق الدولية، مصر، ط٤، ٢٠٠٤م، ص٢٦٦.

٢- ينظر: محمد حسين علي الصغير، تطور البحث الدلالي دراسة تطبيقية في القرآن الكريم. بيروت، دار المؤرخ العربي، ط١، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م، ص٤٨.

٣- بيان إعجاز القرآن، مطبوع ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، سلسلة: ذخائر العرب (١٦)، تحقيق: محمد خلف الله، محمد زغلول، دار المعارف، مصر، ط٣، ١٩٧٦م، ص٢٧.

وتكتسب هذه الدراسة أهميتها من الاعتبارات الآتية:

أولا: الفوائد العلمية

- حلّ المشكلة البحثية المتمثّلة ببيان المسوّغات التي مكّنت الفرائد القرآنية -الواردة في ثنايا الحديث عن القرآن الكريم-دلاليا من سياقها، وبيان الرؤية القرآنية التي يمكن أن تكشفها هذه الفرائد تجاه القرآن الكريم ذاته.

ثانيا: الفوائد التطبيقية

- فتح المجال أمام الباحثين في الحقلين القرآني والبلاغي للوقوف على ظاهرة التمكّن الدلالي للفرائد القرآنية الموضوعية، وتقديم بحوث تتناول الفرائد القرآنية من جوانب موضوعية أخرى تناولتها الفرائد القرآنية.
- يمكن أن تكون هذه الدراسة نواة لتأليف معجم موضوعي للفرائد القرآنية، على غرار معاجم الألفاظ (بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي)، ومعاجم الآيات، وعلى غرار معجم الفرائد القرآنية الذي كان من فكرة الأستاذ باسم البسومي.

الدراسات السابقة

بعد الاطلاع والبحث لم أقف على دراسة مستقلة تناولت التمكّن الدلالي في الفرائد القرآنية الموضوعية الواردة عن القرآن الكريم، ومن أهم الدراسات المتعلقة بمجال الدراسة في موضوع الفرائد القرآنية ما يأتي:

أولا: معجم الفرائد القرآنية[1]، رصد فيه مؤلفه الفرائد القرآنية، وقام باستخراج معانيها من المعاجم اللغوية وكتب التفسير التي تركّز على الجانب اللغوي، وهي دراسة معجمية بحتة.

١- باسم سعيد البسوميّ، مركز نون للدراسات والأبحاث القرآنية، رام الله، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

ثانيا: الأسرار البلاغية في الفرائد القرآنية[1]، تعرّض للأسرار البلاغية في الفرائد القرآنية الواردة في ثنايا القصص القرآني فقط، فيبين معنى الفرائد في كتب التفسير واللغة، ويذكر مرادفات الفريدة موازنا بينها وبين الفريدة موضع الدراسة؛ وصولا إلى بيان الأسرار البلاغية التي كانت وراء اختيار تلك الفريدة دون غيرها من مرادفاتها.

ثالثا: بلاغة الفرائد القرآنية[2]، حيث قامت الباحثة باستقراء الفرائد القرآنية كاملة وتصنيفها ودراستها، واستخراج الفنون البلاغية منها بعلومها الثلاثة.

رابعا: الانفرادات اللفظية، دلالاتها وعلاقتها بالوحدة الموضوعية للسورة القرآنية-دراسة تطبيقية، وهو عنوان مشروع علمي تقدمت به شعبة التفسير في قسم أصول الدين في الجامعة الأردنية لأطروحات الدكتوراة، شمل جميع سور القرآن الكريم، وقُسّم المشروع إلى سبع أطروحات، تمت الأطروحة الأولى من المشروع عام ٢٠١٥م، وتمت الأطروحة الأخيرة عام ٢٠١٧م، والمشروع عبارة عن دراسة دلالية موضوعية تربط بين دلالات الألفاظ الفريدة وبين شخصية وموضوعات السور الواردة فيها تلك الفرائد؛ للوقوف على أثر تلك الفرائد في تحديد موضوع السورة الواردة فيها.

فما تضيفه الدراسة الحالية هو أنها تدرس التمكّن الدلالي في الفرائد القرآنية الموضوعية الواردة في سياق الحديث عن القرآن الكريم من منظور لغوي بياني سياقي، فلا تُدرس المفردة القرآنية خارج سياقها، وهذا -على حدّ علم الباحث- مما لم يُتَناول بدراسة علمية مستقلة محكّمة، فتبين لي بناء على ذلك حداثة وجديّة الموضوع وعدم طرقه من قِبل الباحثين على الرغم من أهميّته.

١- عبد الله عبد الغني سرحان، مركز التدبّر للاستشارات التربوية والتعليمية، مطابع نجد التجارية، السعودية، ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م.

٢- سارة بنت نجر بن ساير العتيبي، رسالة دكتوراه في البلاغة والنقد، كلية اللغة العربية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، ١٤٣٤هـ-٢٠١٣م.

منهج البحث:

وللإجابة عن أسئلة الدراسة اقتضت طبيعة الدراسة تعدد المناهج، ولذلك فإن الباحث جمع بين التحليل والوصف للفرائد القرآنية:

- المنهج التحليلي اللغوي: في تحليل الفرائد القرآنية لغويا لبيان معناها.
- المنهج الوصفي: الذي يرصد ويصف خصائص ظاهرة التمكّن الدلالي الفني للفرائد القرآنية الواردة في سياق الحديث عن القرآن في التعبير القرآني؛ للتوصل إلى نتائج عملية فُسِّرت وَوُصفت بطريقة موضوعية دقيقة تنسجم مع المعطيات والبيانات الصحيحة لهذه الظاهرة.

خطة البحث:

وتحقيقا لغاية البحث وأهدافه، ومحاولة للإجابة عن إشكاليته السابقة، فقد ارتأيت تقسيم البحث إلى مقدمة، وتمهيد، والدراسة التطبيقية، وخاتمة.

المقدمة: وقد تضمنت عرض موضوع البحث، وإشكاليته، وأهميته، والدراسات السابقة، ومنهجيّته، وخطّته.

التمهيد: التعريف بالمصطلحات الواردة في البحث: الفريدة، والتمكّن الدلالي.

الدراسة التطبيقية: مسوّغات التمكن الدلالي للفرائد القرآنية الواردة في سياق الحديث عن القرآن الكريم، وشملت أربعة مباحث كالآتي:

المبحث الأول: الإعراض عن القرآن الكريم.

المبحث الثاني: افتراء المشركين على القرآن الكريم

المبحث الثالث: محاجّة المنكرين والجاحدين من الكفار والمشركين.

المبحث الرابع: تكفّل الله بحفظ القرآن الكريم وجمعه وبيانه

الخاتمة: وتشتمل على أهم النتائج والتوصيات.

التمهيد: التعريف بالمصطلحات الواردة في البحث

أولا: الفرائد

لغة: الفرائد جمع فريد وفريدة، مأخوذة من (فرد) وهو أصل صحيح يدلّ على وُحْدة، والفريد: الدّرّ إذا نُظم وفُصل بَينَه بغَيره، وهو الذي لا مثيل له في جَوْدَته، والفَريدُ والفَرائدُ: الشّذْرُ من فضّة الذي يَفْصل بين اللّؤْلؤ والذهب، وقيل الفَريدُ الجوهرة النفيسة كأَنها مفردة في نوعِها، وذَهَبٌ مُفَرّد مفَصّل بالفريد، وهو الدرّ الذي يفصل بين الذهب في القلادة المفصّلة، فالدر فيها فريد والذهب مفرّد[1].

اصطلاحا: أول من أورد مصطلح الفرائد هو ابن أبي الإصبع المصري في كتابه (تحرير التحبير) تحت (باب الفرائد)، وقال في تعريفه: «هذا باب مختص بالفصاحة دون البلاغة؛ لأن مفهومه إتيان المتكلم بلفظة تتنزل من كلامه منزلة الفريدة من حبّ العِقْد تدل على عظم فصاحته وقوة عارضته، وشدة عربيته، حتى إنّ هذه اللفظة لو سقطت من الكلام لعزّ على الفصحاء غرامتها (خسرانها وفقدانها من الكلام)»[2].

١- ينظر: جمال الدين بن مكرم بن منظور، لسان العرب، مادة (فرد)، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤ه، ٣/ ٣٣١؛ وأحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، مادة (فرد)، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، د. م، د. ط، ١٣٩٩ه، ٤/ ٥٠٠.

٢- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تحقيق: حفني شرف، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٨٣م، ص٥٧٦.

وبهذا يرى الباحث أن الفرائد القرآنية هي: الألفاظ التي وردت في القرآن الكريم مرة واحدة، ولم يتكرر جذرها اللغوي على أيّ صورة من صورها اللفظية، من حيث مادتها وصيغتها وهيئتها، ولا يسدّ غيرها من مرادفاتها مسدّها في موضعها، فتمكّنت بذلك دلالتها من موقعها في سياقها[١].

ثانيا: التمكّن الدلالي

التمكّن لغة: من (مكن) بمعنى القدرة والاستطاعة والقوة والشدة والاستقرار، يقال (أمكنه) من الشيء جعل له عليه سلطانا وقدرة، ويقال فلان لا يمكنه النهوض لا يقدر عليه، وتمكّن عند الناس علا شأنه، وتمكن المكان وبه استقر فيه، وتمكّن من الشيء قدر عليه أو ظفر به[٢].

التمكّن مرتبط بالأسلوب من حيث موضع البنية من النظم -إطار الجملة النحوية الواحدة-وحسن ملاءمة معناها لمعنى ما يجاورها من أبنية[٣]، يقول الجرجاني: «وهل قالوا: لفظةٌ متمكنة، ومقبولة، وفي خلافه: قلقلة ونابية، ومستكرهة، إلا وغرَضُهم أن يعبّروا بالتمكّن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناهُما، وبالقلق والنُّبوّ عن سوء التلاؤم، وأنّ الأُولى لم تَلِقْ بالثانية في معناها، وأن السابقة لم تصلح أن تكون لِفْقا للتالية في مؤدّاها؟»[٤].

١- صُغْتُ تعريف الفرائد من خلال الرجوع إلى: عبد الله عبد الغني سرحان، الأسرار البلاغية في الفرائد القرآنية، ص١٣؛ وغافل، والحلفي، التمكن الدّلالي للألفاظ الواردة مرة واحدة في القرآن الكريم، ص٢٠٢.

٢- ينظر: إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، مادة (مكن)، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م، ٦ / ٢٢٠٥؛ وابن منظور، لسان العرب، مادة (مكن)، ١٣ / ٤١٤؛ وإبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، مادة (مكن)، مجمع اللغة العربية-مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط٤، ٢٠٠٤م، ص٨٨٢.

٣- ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق محمود شاكر، مطبعة المدني-جدة، دار المدني-القاهرة، ط٣، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م، ص٤٤؛ ومحمد غافل، وشكيب غازي، التمكن الدلالي للألفاظ الواردة مرة واحدة في القرآن الكريم، ص١٩٨.

٤- دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص٤٥.

وأما التمكّن الدلالي للفرائد القرآنية من سياقها فيمكن تعريفه إجرائيا بأنه: مكانها من النظم، وتناسقها وحسن ملاءمة معناها لمعنى ما يجاورها داخل التركيب، ويرتبط تمكّن اللفظة بالعلاقات بين البنى المتوالية للنص بأكمله على وفق مناسبة اللفظة لمعناها وسياقها الذي ترد فيه، وهذه العلاقات المتماسكة بين هذه العناصر مجتمعة تمكّن الفريدة دلاليا من التفرّد في سياقها بحيث تؤدي المعنى المسوقة من أجله بدقة ولا تغني لفظة أخرى تقترب من دلالتها العامة غناءَها[1].

الدراسة التطبيقية: مسوّغات التمكن الدلالي للفرائد القرآنية الواردة في سياق الحديث عن القرآن الكريم

المبحث الأول: الإعراض عن القرآن الكريم.

الإعراض: أعرض عن الشيء بمعنى صَدَّ عنه، ووَلاَّهُ ظَهْرَه، يقال أَعْرَضَ الشيءُ يُعْرِضُ من بعيد إذا ظهَر[2]، فقد أمر الله تعالى عباده بالإيمان بالقرآن والعمل به، وهذا ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يبلّغه قومه ويطلبه منهم، ولكن الكفار أعرضوا عن القرآن وما فيه من الحكمة والهدى، وأخلدوا إلى التقليد وإلى أباطيل المضلّين، فيَدَعُون القرآن وهو ظاهر لهم، وقد صوّر القرآن حال الكفار المعرضين عن القرآن الكريم وصيّرهم بمنزلة الأنعام، فهي تقبل بدعاء راعيها ولا تفهم لماذا دعا، كما بيّن القرآن الأسباب والموانع التي حجبت الكفار عن أن يبصروا الحقّ بقلوبهم، ودفعتهم إلى الإعراض والصدّ عن القرآن الكريم، وهذا ما سنعرضه في المطلبين الآتيين.

١- صُغْتُ هذا التعريف من خلال النظر في: الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ٤٤؛ وطالب محمد إسماعيل الزوبعي، من أساليب التعبير القرآني دراسة لغوية وأسلوبية في ضوء النص القرآني، دار النهضة العربية، بيروت، ط١، ١٩٩٦م، ص٣٥٩؛ والتمكن الدلالي للألفاظ الواردة مرة واحدة في القرآن الكريم، ص٢٠٠.

٢- ينظر المعجم الوسيط، مادة (عرض)، ٢ / ٥٩٣، وأبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، مادة (عرض)، دار إحياء التراث العربي-بيروت-٢٠٠١م، ٣ / ٣٧، لسان العرب مادة (عرض)، (٧/ ١٦٥).

المطلب الأول: تمثيل وتصوير حال المعرضين عن القرآن الكريم.

جاءت فيه الفريدة ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ البقرة: ١٧١.

أولا: الدلالة المعجمية

النّعْق: مصدر نَعَقَ ينعِق نَعْقا ونَعيقا، وهو صياح الراعي بالغنم وزجره إياها، والنعيق: دعاء الراعي الشاء، وهي كلمة تدلّ على صَوت، ونعق: نادى، دعا، سمى[١]، ومن معاني (النعيق) التي أضافها الآلوسي: «التتابع في التصويت على البهائم للزّجر»[٢].

ثانيا: السياق الخاص

تتحدّث هذه الآية والتي قبلها[٣] عن الكفّار المعرضين عن القرآن والهدى، فقد حكى الله تعالى عن الكفار أنهم عند دعائهم إلى اتّباع ما أنزل الله تركوا النظر والتدبّر، وأخلدوا إلى التقليد، وقالوا معاندين: بل نتّبع ما وجدنا عليه آباءنا من المعتقدات والتقاليد، وبعدها ضرب لهم هذا المثل تنبيها للسامعين لهم أنهم إنما وقعوا فيما وقعوا فيه بسبب ترك الإصغاء، وقلة الاهتمام بالدين، فصيّرهم من هذا الوجه بمنزلة الأنعام، فمثل الذين كفروا في اتباعهم لآبائهم كالراعي الذي يصيح مناديا على بهائمه، فلا تسمع إلا جرس النغمة ودويّ صوته ولا تفهم قوله،

١- ينظر: محمد بن الحسن بن دريد، جمهرة اللغة، مادة (نعق)، تحقيق رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٨٧م، ٢ / ٩٤٣؛ والجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، مادة (نعق)، ٢ / ٢١٨.

٢- شهاب الدين محمود بن عبد الله الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ط، ١٤١٥ هـ، ١ / ٤٣٩.

٣- وهي قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ البقرة: ١٧٠.

وضَرْبُ هذا المثل كناية عن عدم استجابة الكفار لما أنزل الله تعالى[1].

ثالثا: سرّ اختيار الفريدة ﴿يَنۡعِقُ﴾ في سياقها وأسرارها البلاغية

تشمل الفريدة ﴿يَنۡعِقُ﴾ دلالات توحي بذم التقليد، وتزيل عن النفس عادة الإذعان لغير ما قام عليه الدليل، وتطهر القلب من الأوهام الناشئة عن الإشراك والدهرية وما بينهما، وهذا ما جعلها الأفضل ملاءمة للسياق، بالإضافة إلى الأسرار البلاغية الناشئة عن ذلك، وذلك كما يأتي:

- تشير الفريدة ﴿يَنۡعِقُ﴾ بالإضافة إلى سياقها الواردة فيه إلى قاعدة هامة، وهي أنه لا بدّ من اكتمال الحواس (السمع والبصر والعقل) عند المدعو ليصل إلى الفهم والإدراك لما يُدعى إليه، فالكفار لم يعقلوا ولم يستجيبوا لما أنزل الله تعالى من الهدى والنور، فهم «كالصمّ لا يسمعون الحقّ سماع تدبر وفهم، وكالبكم الذين لا يستجيبون لما دعوا إليه، وكالعمي في الإعراض عن الأدلة حتى كأنهم لم يشاهدوها، ولذلك لم يصلوا إلى الحقّ؛ لأن اكتسابه إنما يكون بالنظر والاستدلال وأنّى لمن فقد هذه الحواس أن يصل إلى الحق ويقبله؟»[2].

- تشير الفريدة ومن خلال معناها المعجمي السابق عرضه إلى أن الكفار لم يستجيبوا لدعوة النبيﷺ فبالرغم من الصوت العالي المتتابع من الراعي على غنمه؛ ليسوقها إلى المرعى، ويدعوها إلى الماء، ويزجرها عن الحمى، فتستجيب دعوته وتنزجر بزجره، ولكنها لا تعقل مما يقول شيئا، وكذلك حال الكفار، فبالرغم من تتابع دعوة النبيﷺ لهم للإيمان بالقرآن الكريم ووجود

١- ينظر: محمد بن عمر الرازي، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ، ٥ / ١٨٩؛ وروح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ١ / ٤٣٩؛ وجماعة من علماء التفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ط٣، مركز تفسير للدراسات القرآنية، ١٤٣٦هـ، ص٢٦.

٢- أحمد مصطفى المراغي، تفسير المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط١، ١٣٦٥هـ-١٩٤٦م، ٢ / ٤٥-٤٦.

ما يهيّجهم ويستثيرهم لقبول دعوته من المعجزات الدالة على صدقه، إلا أن الكفار لا يفهمون منهﷺ إلا كما تفهم البهائم من دويّ الصوت.

- نستدل من المعنى المعجمي للفريدة ﴿يَنْعِقُ﴾ أنها تحوي -بالإضافة إلى معنى الصياح بصوت عالٍ وبتتابع- معنى الزّجر، فالراعي يرفع صوته بالنعيق ليسوقها إلى المرعى، ويدعوها إلى الماء، ويزجرها عن الحمى، فالنعيق فيه متابعة وتقويم لمسير المنعوق به للوصول إلى الغاية وهي المرعى والماء، وهذا يجعل من الفريدة ﴿يَنْعِقُ﴾ ذات دلالات دعوية كثيرة، منها تسلية وتعزية للنبيﷺ والدعاة مِن بَعدِه عند عدم استجابة المدعوين لدعوتهم، فهدف الدعاة ينبغي أن يكون تقويم المدعوّين والصبر عليهم حتى لو لم يعقلوا ويعرفوا الحقّ، والصورة المنفّرة التي ترسمها الفريدة ﴿يَنْعِقُ﴾ ستبقى متجددة مستمرة وذلك في كل زمان ومكان لكل من تسوّل له نفسه التعامي عن الحق، وهذا ماتوحيه صيغة المضارع للفريدة ﴿يَنْعِقُ﴾ الدالة على استمرار التجدد.

- إنّ اصطفاء القرآن للفريدة ﴿يَنْعِقُ﴾ في هذا السياق الذي يذمّ فيه التقليد بلا فهم ولا عقل ولا إدراك، متمكّن من دلالتها المرادة في أن الكفار لم يصلوا إلى معرفة الحقّ ولم يستجيبوا لما دُعُوا إليه، وعليه فالسياق يقتضي استعمال الفريدة ﴿يَنْعِقُ﴾ دون مرادفاتها من مثل (ينادي، أو يصيح، أو يصوّت، أو يدعو)، فهي لا تغني غناء الفريدة ﴿يَنْعِقُ﴾ ولا تعادل (النّعْق) في دلالاتها الخاصة التي ذُكرت سابقا على الصياح والدعاء والنداء بصوت عال وبتتابع للتهييج والزّجر والاستجابة لدعوة الناعق دون فهم ما يُقال لها.

فالنِّدَاءُ: رفْعُ الصَّوت وظُهُورُهُ، وقد يقال ذلك للصَّوْت المجرَّد، وإيّاه قَصَدَ بقوله: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ﴾ البقرة:

١٧١، أي: لا يعرف إلّا الصَّوْت المجرَّد دون المعنى الذي يقتضيه تركيبُ الكلام، ويقال للمركَّب الذي يُفْهَم منه المعنى ذلك، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ الشعراء: ١٠.

وَالدُّعَاء يكون بِرَفْع الصَّوْت وخفضه يُقَال دَعوته من بعيد ودعوت الله في نَفسِي، والصياح رفع الصَّوْت بِمَا لَا معنى لَهُ ولا يكون إلا لحيوان، وأما الصَّوْت فهو عَام في كل شَيْء، تَقول: صَوت الْحجر وَصَوت البَاب وَصَوت الإنسان(١).

وعلى هذا فالنداء أو التصويت أو الدعاء أو الصياح قد تكون بصوت عالٍ ظاهر كالنعيق، ولكنها تخلو من الدلالات الخاصة الأخرى للفريدة ﴿يَنْعِقُ﴾ والتي ذكرت سابقا، كما قد يعقل ويفهم المنادَى والمدعو ما يُقال له، وقد لا يعرف إلّا الصَّوْت المجرَّد دون المعنى الذي يقتضيه تركيبُ الكلام، بخلاف المنعوق به الذي لا يعقل ما يُلقى عليه، وجاء قوله تعالى ليؤكِّد هذه الدلالة الخاصة للفريدة ﴿يَنْعِقُ﴾ حيث ذكر المنعوق به بلازم من لوازمه، فقال تعالى: ﴿بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ﴾ البقرة: ١٧١، وما لا يسمع أي لا يدرك بالاستماع إلا دعاء ونداء، كما أن الدعاء للقريب والنداء للبعيد، والفريدة ﴿يَنْعِقُ﴾ تجمع بين القرب والبعد، والكفار كانت دعوتهم من قريب ومن بعيد وبجميع الوسائل، والفريدة ﴿يَنْعِقُ﴾ تحتمل القرب والبعد، ولكنها تنفرد بعدم الفهم لما يُدعى إليه المنعوق به.

- دلّت الفريدة ﴿يَنْعِقُ﴾ مع سياقها الواردة فيه على الإيجاز بأسلوب الاحتباك(٢)؛ واتبعت الآية السابقة أسلوب الاحتباك لإصلاح الفكر

١- ينظر: أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، تحقيق محمد سليم، دار العلم، القاهرة، د. ط، د. ت)، ص٣٨؛ والحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ، ص٧٩٦؛ وأبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، د. ط، ١٤١٩هـ -١٩٩٨م، ص١٤٦٦.

٢- الاحتباك: «أن يؤتى بكلامين في النص في كل منهما متضادان، أو متشابهان، أو متناظران، أو منفيان، أو يشترك نوعان منهما في نص واحد، فيحذف من أحد الكلامين كلمة، أو جملة إيجازا ويأتي ما يدل=

والارتقاء بالعقل والتنفير من التقليد الأعمى، ففي الآية حذفان: حذف من الأول وهو (داعيهم وهو محمدﷺ) وأثبت نظيره في الثاني وهو (الذي ينعق)، وحذف من الثاني (المنعوق به وهو الغنم) وأثبت نظيره في الأول (وهو الذين كفروا)، فيكون التقدير: مثلك يا محمدﷺ ومثل الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به[١]، وقد حذف اسم الرسولﷺ من الأول لدلالة الذي ينعق عليه في الثاني، وحذف المنعوق به من الثاني لدلالة (الذين كفروا) عليه في الأول.

وكان للمحذوف في الطرفين أثر في المعنى، ففي حذف الأول وهو اسم الرسول أو ما يدل عليه رفع لشأنه، حتى لا يُقرَن بالذي ينعق بما لا يسمع، وأما المنعوق به (الغنم) فلم يصرّح به بل ذكره بلازم من لوازمه ﴿بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ﴾؛ احتقارا وحطّا من شأنهم[٢].

يقول ابن عاشور: «والمثل هنا لما أضيف إلى الذين كفروا كان ظاهرا في تشبيه حالهم عند سماع دعوة النبيﷺ إياهم إلى الإسلام بحال الأنعام عند سماع دعوة من ينعق بها في أنهم لا يفهمون إلا أن النبيﷺ يدعوهم إلى متابعته من غير تبصر في دلائل صدقه وصحة دينه، فكل من الحالة المشبهة والحالة المشبه بها يشتمل على أشياء: داع ومدعو ودعوة، وفهم وإعراض وتصميم، وكل من هاته الأشياء التي هي أجزاء التشبيه المركب صالح لأن يكون مشبها بجزء من أجزاء المشبه به،

= على المحذوف في الثاني، ويحذف من الثاني كلمة أو جملة أيضا قد أتى ما يدل عليها في الأول، فيكون باقي كلّ منهما دليلا على ما حذف من الآخر، ويكمل كل جزء الجزء الآخر ويتمّمه ويفيده من غير إخلال في النظم ولا تكلف»، ينظر: بدر الدين محمد الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، مصر، ط١، ١٣٧٦هـ-١٩٥٧م، ٣ / ١٢٩.

١- ينظر: محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ، ٢ / ١٠٦.

٢- ينظر: أحمد عبد الله البيلي البدوي، من بلاغة القرآن، دار نهضة، القاهرة، د. ط، ٢٠٠٥م، ص٩٩.

وهذا من أبدع التمثيل وقد أوجزته الآية إيجازا بديعا»[1].

إنّ استخدام أسلوب الاحتباك من خلال المحذوف في طرفي الآية غايته أخْذُ العبرة والعظة للقارئ وللسامع لهذا المثل الذي جعل فيه الكافر كالبهيمة، بهذا الأسلوب الذي ينفذ إلى عقله وقلبه وفكره، ويمسّ سرائر نفسه، «فيكون في ذلك نهاية الزجر والردع لمن يسمعه عن أن يسلك مثل طريقه في التقليد»[2]، فيصلح عقيدته بالتوحيد، ولا يسلك سبيل الكفار، وإلا صار كالبهيمة التي لا تعقل.

المطلب الثاني: أسباب الإعراض عن القرآن الكريم

وردت فيه فريدتان، هما: ﴿رَانَ﴾، و﴿أَقۡفَالُهَآ﴾، ووردت الفريدة ﴿رَانَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ المطففين: ١٤، ووردت الفريدة ﴿أَقۡفَالُهَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴾ محمد: ٢٤، وسأتناول الفريدتين معا؛ كونهما من الموانع التي تحجب القلب عن القرآن الكريم والإيمان.

أولا: دلالة الفريدتين المعجمية

- دلالة الفريدة ﴿رَانَ﴾ المعجمية

الرَّيْن: أصل يدلّ على غطاء وسَتْر، ورانَت الخمرُ على قلبه: غَلَبَتْه، ومن الباب: رانَتْ نفسي تَرين، أي خَبُثَتْ وغَثَتْ، والرين: الطَّبَعُ والدَّنَسُ، يقال: رانَ على قلبه ذَنبُهُ أي غطّاه، وهو الذَنْب على الذنب حتّى يسْوَدّ القلب، وهذا من الغلبة عليه، وأَرانَ القوم، هَلَكَتْ مَوَاشيهم أو هُزِلَتْ من شِدّة أَصَابَتْهم لأن ذلك مما غلبهم، والرون الشدة، ورونة الشيء شدته ومعظمه وغايته في حر أو برد أو

١- محمد الطاهر بن محمد ابن عاشور. التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد». (د. ط، تونس: دار سحنون، ١٩٩٧م)، ٢ / ١١١.

٢- الرازي، مفاتيح الغيب، ٥ / ١٨٩.

حرب أو حزن أو غم أو شبهه، والران: الغطاء والحجاب الكثيف والصدأ يعلو الشيء الجلي كالسيف والمرآة ونحوهما وما غطى على القلب وركبه من القسوة للذنب بعد الذنب[٣].

- دلالة الفريدة ﴿أَقۡفَالُهَآ﴾ المعجمية

قفل: أصل صحيح يدلّ أحدهما على أوبةٍ (رجوع) من سفر، والآخر على صَلاَبةٍ وشدّة في شيء، فالأوّل القُفول، وهو الرّجوع من السّفَر، وأمَّا الأصل الآخر فالقَفِيل، وهو الخشب اليابس، ويقال: قفل النبات، وقفل الفجل، وذلك إذا اشتد هياجه فيبس وهزل، والقَفِيْلُ: الشّعْب الضيّق كأنّه دَرْب مُقْفَل (مُغْلق) لا يمكن فيه العَدْوُ، ومكان غَليظ، والمُقْتَفِلُ من الناس: الذي لا يَخْرُجُ من يَدَيْه خَيْرٌ، ومنه القُفْل: سمّي بذلك لأنّ فيه شدّا وشِدّة[٤].

تفرّدت هاتان اللفظتان في السياق السابق لكل منهما -والذي يتحدّث عن الموانع التي تحجب القلب عن القرآن-مع وجود مواضع أخرى مشابهة لهذين السياقيْن تتحدّث أيضا عن الموانع التي تحجب القلب عن القرآن واستعملها القرآن من مثل: (الختم، والطبع)، وحتى يتسنّى لنا تفسير الخاصيةّ الدلالية والقصد الدلالي لاستعمال كل مانع من المانعيْن الفريدين ﴿رَانَ﴾ و ﴿أَقۡفَالُهَآ﴾ في سياقهما دون غيرهما من الموانع، كان لا بدّ من معرفة مفهوم هذه الموانع، وربطها بسياقها الواردة فيه.

٣- ينظر: ابن دريد، جمهرة اللغة، مادة (رين)، ١ / ٤٤٩؛ والجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، مادة (رين)، ١ / ٢٨١؛ وابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مادة (رين)، ٢ / ٤٧٠؛ وابن منظور، لسان العرب، مادة (رين)، ١٣ / ١٩٢.

٤- ينظر: إسماعيل بن عباد الصاحب، المحيط في اللغة، مادة (قفل)، تحقيق محمد آل ياسين، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م، ٥ / ٤٢٧؛ ومعجم مقاييس اللغة، ٥ / ١١٢؛ ولسان العرب، مادة (قفل)، ١١ / ٥٦٠.

ثانيا: دلالة الفريدتين ﴿رَانَ﴾ و ﴿أَقۡفَالُهَآ﴾ السياقية

- دلالة الفريدة ﴿رَانَ﴾ السياقية

وردت هذه الفريدة في سياق الحديث[١] عن الفجار الذين قالوا بأن القرآن الكريم أساطير الأولين وأقاصيص الأمم الأولى وليست كلام الله تعالى، بأسلوب الزجر والتهديد بالويل، ثم بيان الأسباب التي حجبت عنهم رؤية الحقّ ودعتهم إلى مِثل هذا القول الباطل[٢].

- دلالة الفريدة ﴿أَقۡفَالُهَآ﴾ السياقية

وردت هذه الفريدة في سياق الحديث[٣] عن المعرضين من المنافقين الذين يفسدون في الأرض بسفك الدماء الحرام، والبغي والظلم، ويقطعون أرحامهم، فهؤلاء المعرضون أبعدهم الله عن رحمته، وأصمّ آذانهم عن سماع الحق سماع قَبول وإذعان، وأعمى أبصارهم عن إبصاره إبصار اعتبار، ثم بيّنت الآيات لهؤلاء المعرِضين أنهم لو تدبّروا القرآنَ وتأمّلوا ما فيه لدلّهم على كل خير، وأبعدهم عن كل شرّ، ولكن على قلوبِ هؤلاء أقفالها قد أحكم إغلاقها، فلا تصل إليها موعظة، ولا تنفعها ذكرى[٤].

١- وهي الآيات: ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ (٧) وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ (٨) كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ (٩) وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ (١٠) ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ (١١) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ المطففين: ٧ -١٣.

٢- ينظر: برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية-بيروت، ١٤١٥هـ -١٩٩٥م، ٨/ ٣٥٩، والمختصر في تفسير القرآن الكريم، ص٥٨٨.

٣- وهي الآيات: ﴿ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ (٢٢) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ (٢٣) أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴾ محمد: ٢٢ – ٢٤.

٤- ينظر: وهبة بن مصطفى الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط٢، ١٤١٨هـ، ٢٦ / ١١٩؛ والمختصر في تفسير القرآن الكريم، ص٥٠٩.

ثالثا: سرّ اختيار الفريدتين ﴿رَانَ﴾ و ﴿أَقْفَالُهَآ﴾ في سياقهما وأسرارهما البلاغية

- بيّن سياق الفريدتين ﴿رَانَ﴾ و ﴿أَقْفَالُهَآ﴾ الموانع التي حجبت الكفار والمنافقين عن أن يبصروا الحقّ بقلوبهم، وبيّن المولى سبحانه وتعالى أن سبب ذلك راجع إلى غفلة المكذبين وتطاولهم بالكبْرِ والمعَاصي، و«غَلَبَتْ عَلَى قُلُوبِهِمُ الْمَعَاصِي وَأَحَاطَتْ بِهَا»[١]، حتى مَرَنوا عليها، وجاوزوا الحدّ وبلغوا الغاية في المعصية، فانطمست قلوبهم عن الحقّ وأظلمت، فحينئذ يرين على القلب غطاء وحجاب ثقيل كثيف غليظ يمنع النور والإيمان والقرآن عن الوصول إلى هذا القلب، فَخَبُث وغثا وتدنّس وضعُف وعَلَتْه شدّة وقسوة حتى فقد الإحساس وتبلّد وربّما مات قلبه، كما قال ابن القيم-رحمه الله-: «موتا لا يرتَجى معه حياة ينتفع بها، بل حياته حياة يدرك بها الألم فقط»[٢].

وقال الإمام ابن القيم -رحمه الله- في حديثه عن آثار المعاصي على القلب: «يصدأ من المعصية، فإذا زادت غلب الصدأ حتى يصير رانا، ثم يغلب حتى يصير طبعا وقفلا وختما، فيصير القلب في غشاوة وغلاف، فإذا حصل له ذلك بعد الهدى والبصيرة انعكس فصار أعلاه أسفله، فحينئذ يتولاه عدوه ويسوقه حيث أراد»[٣]، ويقول النبي ﷺ في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه موضّحا مفهوم الرّان: «إنّ العبد إذا أخطأ خطيئة نُكتَتْ في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نَزَعَ

١- أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، تفسير البغوي «معالم التنزيل». تحقيق محمد عبد الله النمر وعثمان جمعة ضميرية وسليمان الحرش، (ط٤، الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م)، ٨/ ٣٦٥.

٢- محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي أو الداء والدواء، دار المعرفة، المغرب، ط١، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م، ص٩٠.

٣- ابن قيم الجوزية، الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي أو الداء والدواء، ص٦٠.

واستغفر وتاب سُقِلَ[1] قَلْبُهُ، وإنْ عاد زِيدَ فيها حتّى تَعْلُوَ قلبه، وهو الرّان الذي ذكره الله: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾»[2].

- نستدل من المعنى المعجمي للفريدتين ﴿رَانَ﴾ و ﴿أَقْفَالُهَآ﴾ أنه لا يغني غناءهما في سياقهما غيرُهما من الألفاظ القريبة من دلالتهما من مثل (الختم والطبع) وإن اشتركت جميعها بكونها من الموانع التي تحجب القلب عن الإيمان، وتحمل طابع الإغلاق الفكري عن الحقّ والإعراض عنه، لكنها تفترق في نسبة المنع ومدى ثبوته ولزومه.

وحتى يتسنّى تفسير الخاصيةّ الدلالية والقصد الدلالي لاستعمال الفريدتين ﴿رَانَ﴾ و ﴿أَقْفَالُهَآ﴾ في سياقهما دون غيرهما من مرادفاتهما، كان لا بدّ من بيان الفرق بين مفهوم الران والختم والطبع والقفل، وحتى يظهر الفرق بينها كان لا بدّ من تقسيم مراحل إغلاقهم الفكري عن الحقّ والإعراض عنه إلى مراحل ثلاث:

المرحلة الأولى: الإغلاق الفكري المؤقت الجزئي للمنافذ المؤدّية إلى الإ يمان:

وتمثّل هذه المرحلة الفريدة ﴿رَانَ﴾ وتقدّم بيان مفهومها الذي يدل على حجاب غليظ كثيف ثقيل، لكنه ليس بالسميك الذي يمنع الرؤية، فالعبد كما قال مجاهد رحمه الله تعالى: «يعمل بالذنوب فتحيط بالقلب، ثم ترتفع ، حتى تغشى

١- (سُقِلَ قَلْبُهُ) بالسِّين الْمُهْمَلَة عَلَى الْبِنَاء لِلْمَفْعُول، وَفِي رِوَايَة أَحْمَدَ صُقِلَ بالصَّاد، ينظر: أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني، مسند الإمام أحمد بن حنبل، مؤسسة قرطبة-القاهرة، ٢/ ٢٩٧، حديث رقم ٧٩٣٩، قَالَ فِي الْقَامُوس: السَّقْلُ الصَّقْلُ وَقَالَ فيه صَقَلَهُ جَلَاهُ. وَالْمَعْنَى: نَظَّفَ وَصَفَّى مِرْآةَ قَلْبه لِأَنَّ التَّوْبَةَ بِمَنْزِلَة الْمِصْقَلَة تَمْحُو وَسَخَ الْقَلْب وَسَوَادَهُ حَقِيقِيًّا أَوْ تَمْثِيلِيًّا. ينظر: أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفورى، تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، دار الكتب العلمية-بيروت، ٨/ ٢١٢.

٢- محمد بن عيسى الترمذي، الجامع الصحيح سنن الترمذي، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م، رقم ٣٣٣٤، ٥/ ٤٣٤، قال الترمذي: حديث حسن صحيح، وقال الألباني: حسن، انظر حديث رقم: ٢٥٥٠ في: محمد ناصر الدين الألباني، صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٤٠٨هـ -١٩٨٨م، ١/ ٣٤٢.

القلب»[١]، بمعنى أن الذنوب تحيط بالقلب فإذا تتابعت[٢] ارتفعت حتى تغشى وتشمل القلب كله وتغطيه بحجاب كثيف ثقيل غليظ (الران)، فيثقل القلب من الذنوب، ويُحجَب عن القيام بوظيفته وهي إدراك الحقّ، فلا ينفذ الإيمان إلى قلبه، ولا يدخله فَهْم القرآن، ولكن هذا الرّان لا يعني عدم نفوذ الإيمان إلى القلب نهائيا، فهو إغلاق مؤقت جزئي للمنافذ المؤدّية إلى الإيمان، وليس إغلاقا دائما تاما لها.

ناسبت الفريدة ﴿رَانَ﴾ ما ذهب إليه السياق الذي بيّن الأسباب والموانع التي حجبت عنهم رؤية الحق، فالران حجاب وغطاء خفيف يزداد سمكا وكثافة وثقلا وغلظة كلما ارتكبت الذنوب والمعاصي تدريجيا؛ ذلك أن أصل الران-كما سبق بيان ذلك في المعنى المعجمي له-هو الصدأ يعلو الشيء الجلي كالسيف والمرآة، ويعني: اسوداد القلب من الذنوب؛ لأن العبد إذا أخطأ خطيئة نُكتَتْ في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نَزَعَ واستغفر وتاب سُقِلَ (جلا) قَلْبُهُ، وإنْ عاد زِيدَ فيها حتّى تَعْلُوَ قلبه، وهو الرّان الذي ذكره الله، كما جاء في حديث النبي ﷺ السابق الذكر.

ولذلك فالفريدة (الران) لها دلالة خاصة على كونها حاجبا ومانعا قابلا للإزالة بالتوبة من المعاصي، وفي كونها تمثّل إغلاقا مؤقتا جزئيا للمنافذ المؤدّية إلى الإيمان، ولكنّ هذا الران يزداد سمكا بالعودة إلى المعاصي تدريجيا حتى يصل القلب إلى المرحلة الثانية من الإغلاق.

١- محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، د. م، ط١، ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠م، ٢٤ / ٢٨٧.

٢- يقول ابن عاشور: «ومجيء يكسبون بصيغة المضارع دون الماضي لإفادة تكرر ذلك الكسب وتعدده في الماضي»، التحرير والتنوير، ٣٠ / ٢٠٠.

المرحلة الثانية: التغْطِيةُ على القلب وغَلْقه والاستيثاقُ من أَن يدخله الإ يمان:

وتمثّل هذه المرحلة (الطبع والختم) وهما متقاربان دلاليّا؛ فكلاهما يعني في اللغة: بُلوغ آخِرِ الشّيء، والتغْطِيةُ على الشيء والاستيثاقُ من أَن يدخله شيء[١]، لذا فهما يشتركان في معنى التغطية وعدم نفوذ الهدى والنور إلى قلب الكافر، فلا يوفّق لخير.

ومع كون (الختم والطبع) متقاربين دلاليا ولا نجد فارقا بين الختم والطبع في الاستعمال اللغوي إلا أن أبا هلال العسكري فرّق بينهما مبيّنا افتراقهما في نسبة المنع ومدى ثبوته ولزومه، فيقول: «الفرق بين الطبع والختم: أن الطبع أثر يثبت في المطبوع ويلزمه فهو يفيد من معنى الثبات واللزوم ما لا يفيده الختم، ولهذا يقال طبع الدرهم طبعا وهو الأثر الذي يؤثره فيه فلا يزول عنه، كذلك قيل أيضا: طَبْع الإنسان لأنه ثابت غير زائل، وقيل: طُبِع فلان على هذا الخلق إذا كان لا يزول عنه»[٢]، وذكر الراغب الأصفهاني: أنّ «الطّبع أعمّ من الخَتْم»[٣]، وذكر ابن قيم الجوزية أن الختم والطبع يشتركان في معنى التغطية على الشيء والاستيثاق منه، ويفترقان في معنى آخر وهو أن الطبع ختم يصير سجية وطبيعة فهو تأثير لازم لا يفارق[٤]، ولذلك فالطبع أشدّ من الختم، والختم أشدّ من الرّين، قال مجاهد: الرَّيْن أَيسر من الطبع ، والطبع أَيسر من الإِقْفالِ، والإِقْفالُ أَشدّ من ذلك كله[٥].

يقول الطبري رحمه الله: «إنّ الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها، وإذا أغلقتها أتاها حينئذ الختم من قبل الله عز وجل والطبع ، فلا يكون للإيمان إليها

١- ينظر في: معجم مقاييس اللغة، مادة (طبع)، ٣ / ٤٣٨، ولسان العرب، مادة (طبع)، ٨ / ٢٣٢، ومادة (ختم) في: معجم مقاييس اللغة، ٢ / ٢٤٥.
٢- أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص٧٣.
٣- الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص٥١٥.
٤- ينظر: محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د. ط، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م)، ١٧ / ١٦-١٧.
٥- ينظر: لسان العرب، مادة (طبع)، ٨ / ٢٣٢.

مسلك، ولا للكفر منها مخلص، فذلك هو الطبع والختم الذي ذكره الله تبارك وتعالى في قوله: ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم﴾ نظير الطبع والختم على ما تدركه الأبصار من الأوعية والظروف التي لا يوصل إلى ما فيها إلا بفض ذلك عنها ثم حلها، فكذلك لا يصل الإيمان إلى قلوب من وصف الله أنه ختم على قلوبهم، إلا بعد فضه خاتمه وحله رباطه عنها»(1).

المرحلة الثالثة: مرحلة القفل على القلب والإغلاق التام لكل المنافذ المؤدّية للإ يمان:

وتمثل هذه المرحلة الفريدة ﴿أَقْفَالُهَآ﴾ فيصل قلب المطبوع حينئذ إلى مرحلة القفل على قلبه ﴿ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾، وفي آيات القرآن الكريم غالبا ما يقترن الختم والطبع والرين على القلوب بالأسماع أو الأبصار مباشرة، أما في آية ﴿ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ فقدّم أولا ﴿ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ محمد: ٢٣، وبعد أن تحقق من عملية الصمّ والعمى معا، ذكر ﴿ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾، وفي هذا دليل على الإغلاق التام لكل المنافذ المؤدّية للإيمان، أي أن القفل أشد وأقوى في عملية الغلق من الرين والختم والطبع .

المبحث الثاني: افتراء المشركين على القرآن الكريم

جاءت الفريدة ﴿عِضِينَ﴾ تصوّر عداوة المشركين للقرآن الكريم بتأويلهم وتحريفاتهم له، ووردت في قوله تعالى: ﴿ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴾ الحجر: ٩٠ – ٩١.

أولا: الدلالة المعجمية

اختلف أهل العربية في اشتقاق أصل (عضين) فمنهم من قال واحدها عِضَة، والعِضَة: الجزء والقطعة من الشيء، وأصلها عِضْوة فِعْلة، من عضّيتُ الشيء، إذا

١- جامع البيان في تأويل القرآن، ١ / ٢٦٧.

فرّقتَه وجزّأته، والعِضين: الفِرَق، ومنهم من قال: أصل العِضَة عِضْهة، فاستثقلوا الجمع بين هاءين فقالوا عِضَة، ومعنى العَضْهُ: السّحر بلغة قريش، والعَضْهُ القالةُ القَبيحَةُ[1]، والنّميمَةُ، وقيل: هو من العِضَهِ، وهو: الكذب، والبهتان، والسبّ المفحش، يقال: عَضَهُ عَضْهَا، وعضيهةً، أي: رماه بالبهتان، وهذا قول الكسائي رحمه اللّهُ تعالى[2]، وقيل: «هو من العِضَاه، وهو كل شجر يعظم وله شوك مؤذٍ»، قاله الفرّاء[3].

ثانيا: السياق الخاص

تتحدّث الآيتان السابقتان عن المقتسمين ويجوز أن يراد بهم جَمْع من المشركين من قريش، فيكون المراد بالقرآن مسمى هذا الاسم العلم وهو كتاب الإسلام، وقد اقتسموا القرآن بأقوالهم الكاذبة، فقال بعضهم: هو شعر، وقال بعضهم: هو سحر، وقال بعضهم: كهانة، وقال بعضهم: أساطير الأولين، ويجوز أن يراد بهم طوائف أهل الكتاب قسموا كتابهم أقساما، منها ما أظهروه وآمنوا به ومنها ما أخفوه وكفروا به وفقا لأهوائهم وأغراضهم، فيكون القرآن مصدرا أطلق بمعناه اللغوي، أي المقروء من كتبهم، أو قسموا كتاب الإسلام، منه ما صدقوا به وهو ما وافق دينهم، ومنه ما كذبوا به وهو ما خالف ما هم عليه، قال عكرمة سُمّوا بالمقتسمين لأنهم اقتسموا القرآن استهزاء به فقال بعضهم سورة كذا لي وقال بعضهم سورة كذا لي والمراد بالتقسيم والتجزئة تفرقة الصفات والأحوال لا تجزئه الذات[4].

١- ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، مادة (عضو، عضه)، ٦ / ٢٢٤١؛ ومعجم مقاييس اللغة، مادة (عضو)، ٤ / ٣٤٧، ولسان العرب، مادة (عضه)، ١٣ / ٥١٥.

٢- ينظر: علي بن حمزة الكسائي، معاني القرآن، قدم له: عيسى شحاته، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، د. ط، ١٩٩٨م، ص١٧٥-١٧٦.

٣- الفراء، معاني القرآن، ٣ / ٦٧.

٤- ينظر: مفاتيح الغيب، ١٩ / ١٦٨؛ ومحمد الأمين بن محمد الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، د. ط، بيروت-لبنان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م، ٢ / ٣١٨؛ والتحرير والتنوير، ١٤ / ٨٥.

ثالثا: سرّ اختيار الفريدة ﴿عِضِينَ﴾ في سياقها وأسرارها البلاغية

١- نستدل من المعنى المعجمي للفريدة ﴿عِضِينَ﴾ أن معانيها تدور حول التفرقة والتجزئة والسّحر والكذب، والبهتان، والسبّ المفحش، والقالة القَبِيحَة، والنميمة، والإيذاء.

٢- يوحي سياق الفريدة ﴿عِضِينَ﴾ بمدى تكذيب المشركين وأهل الكتاب وعنادهم ومزيد عداوتهم للقرآن الكريم وللنبيﷺ، فمعنى جعلهم القرآن عضين حكمهم بأنه مفترى وتكذيبهم به[1]، حيث قسَموا القول فيه إلى حق وباطل عنادا وعدوانا.

٣- إن الفريدة ﴿عِضِينَ﴾ لا يغني غناءها غيرُها من مثل: أجزاء؛ فهي لا تعادل الفريدة ﴿عِضِينَ﴾ في دلالتها الخاصة على ما يلي:

- عدم دلالة الفريدة ﴿عِضِينَ﴾ على مطلق التجزئةِ والتفريق، «فالتعبير عن تجزئة القرآن بالتعضية التي هي تفريق الأعضاء من ذي الروح المستلزمُ لإزالة حياتِه وإبطالِ اسمِه دون مطلق التجزئةِ والتفريق اللذَيْن ربما يوجدان فيما لا يضره التبعيض من المِثليات»[2]، معنى ذلك أنهم لم يجزّئوا القرآن بهدف تيسير وتسهيل قراءته وحفظه وفهمه والعمل به، كما هو الحال في تقسيم القرآن الكريم ثلاثين جزءا، بل كان هدفهم من التعضية إيذاء القرآن بجعله ذا أعضاء وأجزاء متفاصلة متباينة مختلفة فيما بينها وعزلها وتفريقها عن بعضها فهي غير قابلة للرجوع إلى أصلها مثل أعضاء الجزور إذا قطعت[3]، بمعنى تفريق وحدة وبنية وارتباط والتئام القرآن الكريم، بتفريق معانيه

١- ينظر: روح المعاني، ٧/ ٣٢٥.
٢- أبو السعود العمادي، محمد بن مصطفى، تفسير أبي السعود أو إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، وضع حواشيه عبد اللطيف عبد الرحمن، بيروت-لبنان، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٩ه، ٤/ ٩٣.
٣- ينظر: البقاعي، نظم الدرر، ٤/ ٢٤٠.

ونظمه، والإيمان ببعضه والكفر ببعضه الآخر، كما قال تعالى: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ البقرة: ٨٥.

- التعبير عن تجزئة القرآن بالتعضية للتنصيص على كمال قبح وشناعة ما فعلوه بالقرآن العظيم[١]، وبالنبيﷺ إذ كانوا يقصدون بقالتهم القبيحة عن القرآن الطعنَ فيه، والنميمةَ والإفسادَ بين النبيﷺ وبين الناس؛ لإبعاد الناس عن الإيمان بدينه.
- التعبير عن تجزئة القرآن بالتعضية للدلالة على أنهم «أكثروا البهت على القرآن ونوّعوا الكذب فيه»[٢]، حيث قال بعضهم: هو سحر، وقال بعضهم: كهانة، وقال بعضهم: أساطير الأولين، ومما يدلّ كذلك على إكثارهم من البهت على القرآن الكريم لفظ ﴿ ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴾ وهو افتعال من قسم إذا جعل شيئا أقساما، وصيغة الافتعال هنا تقتضي تكلف الفعل وتطلّبه والاجتهاد فيه[٣] فعلى هذا فمعنى (التعضية) أي فرّقوا القرآن بشدة وجهد.
- كما أن التعبير عن تجزئة القرآن بالتعضية للدلالة على اضطرابهم وعبثهم، فهم لا يثبتون على قول واحد بحق القرآن والنبيﷺ، فتارة يقولون شاعر وتارة كاهن، وتارة ساحر، كما قال تعالى في حقّ المكذبين بالقرآن الكريم: ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِيٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ سورة (ق: ٥).

وأما كلمة (أجزاء) فلا تعطي الدلالات السابقة للفريدة ﴿عِضِينَ﴾ فهي تدل على «مطلق التجزئة والتفريق اللذَيْن ربما يوجدان فيما لا يضره التبعيضُ من المِثليات»[٤]، والقرآن يضرّه التعضية فهي تسلب عنه وحدته وروحه، كما تدور

١- ينظر: تفسير أبي السعود، ٤ / ٩٣.
٢- محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح شمس الدين القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق سمير البخاري، د. ط، الرياض: دار عالم الكتب، ٢٠٠٣م، ١٠ / ٥٩.
٣- ينظر: التحرير والتنوير، ١٤ / ٨٥.
٤- تفسير أبي السعود، ٤ / ٩٣.

معاني (جزأ) على الاكتفاء والاستغناء، بمعنى الاستغناء عن الأصل، كما قال ابن فارس: «والجُزْءُ: استغناء السائمة عن الماء بالرُّطب»[١]، «إنّ قَوْلك اجتزا يَقْتَضِي أَنه دون مَا يحْتَاج إِلَيْه وَأَصله من الْجُزْء وَهُوَ اجتزاء الإِبِل بالرطب عَن المَاء وَهِي وَإِن اجتزأت بِهِ يَقْتَضِي أَنه دون مَا تحْتَاج إِلَيْهِ مِنْهُ فَهِيَ محتاجة إِلَيْهِ بعض الْحَاجة»[٢]، ومعنى ذلك أن الجزء قد يستغني عن الأصل بغيره ولكن ليس استغناء بالكلية، بل يبقى الجزء بحاجة للأصل، ويُفهم من ذلك أنه لو قال: وجعلوا القرآن أجزاء بدل عضين، لكانت تجزئتهم غير تامة، وبقي الجزء الذي قسموه له نوع تعلق بالقرآن، ولكن لما قال عضين فُهم أن تجزئتهم تامة لا علاقة لها بالأصل مستغنية عنه، ولا أمل في إرجاع العضو المقسوم إلى أصله، وهذا دليل على عظيم جُرمهم، فهم قد وصفوا القرآن بصفات يستحيل التقاؤها مع القرآن بحال، كما أنهم آمنوا ببعض القرآن وكفروا ببعضه الآخر المخالف لأهوائهم مثل نسخ شريعتهم وإبطال بُنوّة عيسى لله تعالى، بصورة يستحيل معها أن يبقى قرآن بالهيئة والإعجاز والالتئام والارتباط الذي أنزله المولى سبحانه، ولا يمكن هذا في حقّ القرآن الكريم فهو وحدة واحدة، كما قال عنه البقاعي: «منتظم التأليف أشد انتظام، متلائم الارتباط أحكم التئام»[٣]، وبما أن الجزء له نوع تعلق بالأصل فقد تظهر فيه خواص الكل وصفاته[٤]، وأما الشيء المعضّى (القرآن) فلا تظهر في أعضائه خواص القرآن وصفاته؛ لأنه الأعضاء المتفرقة قد فُصلت وجُزّئت تماما عن الأصل، فهم بتعضيتهم للقرآن قد نزعوا روحه التي تسري فيه، فكيف تظهر في الأعضاء المتفرّقة صفات القرآن، ومن هنا نقول يتكون القرآن الكريم من ثلاثين

١- يقول ابن فارس: (جزأ) أصل واحد يدل على الاكتفاء بالشيء، والجزء: استغناء السائمة عن الماء بالرّطب، والجزْء: الطائفة من الشّيء، ينظر: معجم مقاييس اللغة، مادة (جزأ)، ١ / ٤٥٥؛ ولسان العرب، مادة (جزأ)، ١ / ٤٥.

٢- أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ١ / ١٢٠.

٣- البقاعي، نظم الدرر، ٤ / ٢٣٧.

٤- ينظر: أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة، مادة (سطو)، ط١، د. م: عالم الكتب، ١٤٢٩هـ، ١ / ٣٦٩.

جزءًا وليس عضوا؛ لأن الأجزاء وحدة واحدة لا تستغني عن بعضها، وإنما التجزيء فقط لسهولة الحفظ وتيسير الفهم، وليس لإحداث اللبس وتشكيك الناس والإيمان ببعض القرآن وتنحية البعض الآخر والكفر به.

ومن هذا يتبين أن لفظ (أجزاء) لا يعطي الدلالات السابقة للفريدة ﴿عِضِينَ﴾، كما لا يتناسب وسياق الآية الذي يصور مدى تكذيب المشركين وأهل الكتاب وعنادهم ومزيد عداوتهم للقرآن الكريم وللنبيﷺ ويصور افتراءاتهم على القرآن الكريم التي تهدف إلى إحداث قطيعة معرفية مع القرآن الكريم وعزله عن مقاصده وسياقه، وصولا إلى تجاوزه، واستبداله بمرجعيات وضعية، ولا شك أن هذه الفريدة تصور هذه العداوة للقرآن ليس في زمن النبيﷺ فحسب بل العداوة والتعضية في كل زمان ومكان للنّيل من القرآن الكريم، وأنّى لهم ذلك!

- جاءت الفريدة ﴿عِضِينَ﴾ في جملة خبرية مستعملة في لازم الفائدة[1]، فالمقتسمين على علم بما فعلوا من التقسيم، ولكنّ المتكلم وهو المولى سبحانه يخاطبهم ليعلموا أنه سبحانه مطّلع على قسمتهم، ومراقب لأقوالهم، وفي ذلك إيقاظ لهم بأن يتدبروا في هذا الذي زعموه عن القرآن؛ ليظهر لهم صدقه، فيوقنوا أن القرآن لا يكون إلا من إنزاله سبحانه، وهذا الخبر مسوق لتسلية النبيﷺ ووعيدا لمن افترى على القرآن وجعله عضين.

١- «الأصل في توجيه الكلام الذي يتضمن خبرا ما أن يكون الغرض منه الإعلام بالخبر الذي دل عليه الكلام، أي: إفادة المخاطب الحكم الذي تضمنته الجملة أو الجمل الخبرية، ويسمى هذا عند علماء البلاغة فائدة الخبر، وقد يراد من توجيه الكلام الذي يتضمن خبرا ما، إعلام المخاطب بأن المتكلم عالم بالحكم الذي تضمنته الجملة الخبرية، ولا بد عندئذ من أن يكون المخاطب عالما به، ويسمى هذا عند علماء البلاغة لازم الفائدة». عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي، البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها وصور من تطبيقاتها بهيكل جديد من طريف وتليد، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م، ١/ ١٧٣.

المبحث الثالث: محاجّة المنكرين والجاحدين من الكفار والمشركين.

وجاءت فيه الفريدة ﴿تَفۡسِيرًا﴾ الفرقان: ٣٣، ووردت في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا﴾ الفرقان آية: ٣٣.

أولا: دلالة الفريدة اللغوية

التفسير في اللغة: تفعيل من الفَسْر، والفَسْرُ: البيان والتوضيح والإظهار وكشف المُغَطّى، فَسَر الشيءَ يفسِرُه وتَفْسُرُه فَسْرا وفَسّرَهُ أبانه، والفَسْر والتّفسرَة: نظَر الطّبيب إلى الماء وحُكمهُ فيه، والتّفْسير كَشف المُراد عن اللفظ المُشْكل[١].

بيّن الراغب أن الفَسْرَ والسّفْرُ يتقارب معناهما كتقارب لفظيهما لكن جُعل الفسر لإظهار المعنى المعقول، ومنه قيل لما ينبئ عنه البول: تَفْسِرَة، وسمي بها قارورة الماء، وجُعل السفر لإبراز الأعيان للأبصار، فقيل: سفرت المرأة عن وجهها وأسفر الصبح[٢].

والتفسير في الاصطلاح: للعلماء في تعريفه أقوال كثيرة، ومنها: علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية[٣].

نستدل من المعنى المعجمي للفريدة أنّ معانيها تدور حول البيان والتوضيح والإظهار والكشف.

ثانيا: السياق الخاص

بعد أن حكى اللّٰه تعالى شبهةً لمشركي مكة واستقصى أكثر معاذيرهم وتعلّلاتهم وألقمهم أحجار الرد إلى لهواتهم بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا

١- ينظر: معجم مقاييس اللغة، مادة (فسر)، ٤ / ٥٠٤؛ ولسان العرب، مادة (فسر)، ٥ / ٥٥.
٢- ينظر: المفردات في غريب القرآن، ص٦٣٦.
٣- ينظر: محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر، ط٣، ١٣٦٢هـ-١٩٤٣م، ٢ / ٣.

نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴾ الفرقان: ٣٢، حيث قالوا: إذا كنت تزعم أنك رسول من عند الله، فهلا أنزل القرآن عليك جملة واحدة، «عطفَ على ذلكَ فذلكةً[١] جامعةً تعمّ ما تقدم وما عسى أن يأتوا به من الشكوك والتمويه بأن كل ذلك مدحوض بالحجة الواضحة الكاشفة لترّهاتهم»[٢]، فقال تعالى: ﴿ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ﴾، وقد أبان الله تعالى في هذه الآية تأييد نبيه بالوحي وإبطال حجج المشركين، فهم كلما جاءوا بمثل أو شبهة جئناك بالجواب الحق الثابت عليه في نفس الأمر، ويكون أصدق في الواقع، وأحسن تفسيرا وبيانا مما يقولون[٣]، و«ينقض عليهم ما يأتون به»[٤].

ثالثا: سرّ اختيار الفريدة ﴿تَفۡسِيرًا﴾ في سياقها وأسرارها البلاغية

- يوحي سياق الفريدة ﴿تَفۡسِيرًا﴾ بمدى جهل وزيغ وعناد الكفار والمشركين الذين لا يفتؤون يثيرون الشُبَه ويلقون اقتراحاتهم وأسئلتهم الباطلة معارضة للنبيﷺ لإبطال أمره وأمر القرآن الكريم، ولكنّ المولى سبحانه يبرّئ ساحته فيجيئه في مقابلة أسئلتهم التي هي مَثَل في البُطلان بالجوابِ الحقّ القالع لعروقِ أسئلتِهم الشّنيعةِ الدّامغةِ لها بالكُلّية، والذي ينْحي عليها بالإبطالِ ويحسم مادّةَ القِيلِ والقالِ، مع كون هذا الجواب الحق أحسن تفسيرا وكشفا وإيضاحا للحقائق[٥].
- إنّ الفريدة ﴿تَفۡسِيرًا﴾ لا يغني غناءها غيرُها من مثل: تأويلا؛ لأنها لا تعادل الفريدة ﴿تَفۡسِيرًا﴾ في دلالتها الخاصة، فبالرغم مما هو شائع عند المتقدمين

١- فذْلَكَة (مفرد): جمعها فَذْلَكات، مصدر (فذلكَ)، بمعنى: خُلاصة، مُجمل ما فُصِّل، ينظر: أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة، ٣/ ١٦٨٣. وإبراهيم مصطفى، وأحمد الزيات، وحامد عبد القادر، ومحمد النجار، المعجم الوسيط، تحقيق: مجمع اللغة العربية، دار الدعوة، ٢/ ٦٧٨.

٢- التحرير والتنوير، ١٩/ ٢١.

٣- ينظر: التفسير المنير، ١٩/ ٥٨-٦٠.

٤- جامع البيان في تأويل القرآن، ١٥/ ١١٦.

٥- ينظر: تفسير أبي السعود، ٥/ ١٠٥؛ وأضواء البيان، ٥/ ٢٩٩.

من المفسِّرين كالطبري ومن قبله من كونهما بمعنى واحد وأنهما مترادفان، ولكنّ الإمام الزركشي رجّح أن هناك فرقا بين التأويل والتفسير وأنهما ليسا بمعنى واحد، فقال: «والصحيح تغايرهما»[1]، والمتأمل في سياق الآية السابقة يتبيّن له اصطفاء القرآن الفريدة ﴿تَفۡسِيرًا﴾ دون لفظ التأويل مثلا، وورد لفظ (التأويل) في سياقات أخرى سبع عشرة مرة، بينما الفريدة ﴿تَفۡسِيرًا﴾ وردت مرة واحدة في القرآن، وهذا دليل واضح على وجود فروق ودلالات وإيحاءات خاصة بالفريدة ﴿تَفۡسِيرًا﴾ اقتضت اصطفاءها على كلمة (تأويلا) وإن اتفقتا على كونهما تفسيرا للفظ وبيان معناه، ومما ذكره العلماء في الفرق بين التفسير والتأويل مما يلزمنا في بيان سبب اصطفاء الفريدة ﴿تَفۡسِيرًا﴾ دون كلمة (تأويلا) أن التفسير يخالف التأويل بالعموم والخصوص، حيث ذكر الراغب أن التفسير أعم من التأويل، وأكثر استعماله في الألفاظ ومفرداتها، وأكثر استعمال التأويل في المعاني والجمل، وأكثر ما يستعمل التأويل في الكتب الإلهية، والتفسير يستعمل فيها وفي غيرها[2]، فهنا يرى الراغب أن التفسير أعمّ من التأويل، والعموم في الفريدة ﴿تَفۡسِيرًا﴾ يتناسب مع تنكير ﴿بِمَثَلٍ﴾ الدال على التعميم لمجيئه في سياق النفي، يقول ابن عاشور: «وتنكير ﴿مَثَل﴾ في سياق النفي للتعميم، أي بكل مَثَل، والمقصود: مَثَل من نوع ما تقدم من أمثالهم المتقدمة... ودلّ على إرادة هذا المعنى من قوله ﴿بِمَثَل﴾ قوله آنفا: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَٰلَ﴾ الفرقان: ٩، عقب قوله: ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا﴾ الفرقان: ٨»[3]، ويُفهم من ذلك أن الكفار جاؤوا بشُبَه كثيرة ومتنوعة يعترضون بها على القرآن، وعلى النبيﷺ فجاءت الفريدة ﴿تَفۡسِيرًا﴾ لتدلّ

١- البرهان في علوم القرآن، ٢ / ١٤٩.
٢- ينظر: تفسير الراغب الأصفهاني، ١ / ١١.
٣- التحرير والتنوير، ١٩ / ٢١.

بعمومها على كشف الحجة وتجلية الدليل وإظهار البرهان في كل ما أثاروه من أمثال وشُبَه فلا يبقى بعد ذلك غموض ولا شُبهة فيظهر حينئذ الحقّ وينكشف.

ومن العلماء من يرى أن التفسير يخالف التأويل بالتباين، يقول الماتُرِيدِيّ في بيان وجه التباين: «التفسير القطع على أن المراد من اللفظ هذا، والتأويل ترجيح أحد المحتملات بدون قطع»[1]، فالماتُرِيدِيّ يرى أن التفسير بيان لفظ لا يحتمل إلا وجها واحدا، والتأويل توجيه لفظ مُتوَجّه إلى معان مختلفة إلى واحد منها، بما ظهر من الأدلة وبدون قطع[2]، وبناء على هذا التباين بين التفسير والتأويل يكون اصطفاء الفريدة ﴿تَفۡسِيرًا﴾ في هذا السياق في محلّه ولا تغني عنها كلمة (تأويل) فالمقام مقام مواجهة ومجابهة ومقارعة لا تصلح فيه التأويلات والاحتمالات والمراوغات وتقديم الحلول المحتملة، فهو يتطلب قطعا وكشفا وحسما لشُبههم ودمغا وقلعا لعروقِ أمثالهم الباطلة وكشفا وإيضاحا للحقائق بوجه واحد صحيح وبرهان قاطع.

- إن الفريدة ﴿تَفۡسِيرًا﴾ تكشف الحجة للوصول إلى الشيء المغطّى وهو الحقّ، وهو الغاية التي يسعى القرآن للوصول إليها، وليس إفحام المعارضين والانتصار والغلبة عليه في مقارعاتهم ومحاجّاتهم، ومما يقوّي هذا المعنى ما يأتي:
- وَمِنْ نُكَتِ دقائق الاستعمال مجيء ﴿وَأَحۡسَنَ﴾ أفعل التفضيل، وهي إما ألا تكون على بابها؛ فالتفضيل حينئذ للمبالغة، ومعنى كونه أحسن، أنه أحق في الاستدلال، إذ ليس في حجتهم حسن، وما كان كذلك فلا بدّ أن يصل إلى

١- أبو منصور المَاتُرِيديّ، تفسير المَاتُرِيديّ (تأويلات أهل السنة)، تحقيق مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط١، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م، ١/ ١٨٥.

٢- ينظر: السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمود القيسية ومحمد أشرف الأتاسي، ط١، أبو ظبي: مؤسسة النداء، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، ٤/ ١٩٢.

الحقّ ويكشف عنه، أو أن يكون التفضيل على حقيقته، وحينئذ يُراد بالحُسْنِ مَا يَبْدُو مِن بَهْرَجَةِ سَفْسَطَتِهِم وَشُبَهِهِم فيجيء الكشف عن الحق أحسن وقعا في نفوس السامعين من مغالطاتهم[1].

- مجيء الآية على هيئة الاستثناء المفرّغ، وهو استثناء من أحوال عامة يقتضيها عموم الأمثال؛ لأن عموم الأشخاص يستلزم عموم الأحوال، أي لا يأتونك بمَثَلٍ إلا حال إيتائنا إيّاك الحقّ الذي لا محيدَ عنه وأحسن تفسيرا، وجعل ذلكً مقارنا لإتيانهم وإن كان بعده للدلالة على المسارعة إلى إبطال ما أتوا به تثبيتا لفؤاد النبيﷺ[2]، والمسارعة في إبطال شُبَه الكافرين دليل على بطلان شُبههم وعدم أحقيّتها بالاستدلال، وصحة الردّ والإجابات عليها، مما يعني تحقّق الكشف عن الحجة والدليل ومن ثمّ الوصول إلى الحقّ.

- مجيء الفعل ﴿جِئْنَٰكَ﴾ بصيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع، أو إشارة إلى تعظيم مجيء الحقّ وأنه أمر مرعي لم يترك إلى أن يفعل بعد[3]، بمعنى تحقق مجيء الحقّ من الله تعالى حال إتيانهم بالمثَل، وتحقق مجيء الحق دليل على كشفه وإظهاره وإبطال أمثال الكفار وشُبههم، ودليل على أحقيّته في الاستدلال، وعظمته عند الله تعالى، وقوّته بنفسه وعدم التباسه بالباطل.

١- ينظر: التحرير والتنوير، ١٩ / ٢٣.

٢- ينظر: تفسير أبي السعود، ٥ / ١٠٥؛ والمرجع السابق، ١٩ / ٢٢.

٣- دلالة الماضي على تحقق الوقوع كثيرا ما كان يستخدمها الآلوسي وابن عاشور في تفسيريْهما، لذا وظّفت ذلك في هذا المقام. ينظر على سبيل المثال: روح المعاني، ٦ / ٣٤١، عند قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ هود: ١٠٦؛ ٧: ٣٦٩ عند قوله تعالى: ﴿ فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ﴾ النحل: ٢٨؛ والتحرير والتنوير، ٢٣ / ٢٦، عند قوله تعالى:﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ﴾ يس: ٥١؛ ٢٩ / ٤٩ عند قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً ﴾ الملك: ٢٧.

المبحث الرابع: تكفّل الله بحفظ القرآن الكريم وجمعه وبيانه

احتوى هذا المبحث على فريدة واحدة، وهي: ﴿تُحَرِّكْ﴾ وقد وردت في قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ القيامة: ١٦.

أولا: الدلالة المعجمية

الحَرَكة: ضدّ السكون، حَرُك يحْرُك حَرَكةً وحَرْكا[١]، وتحرَّك الشَّخصُ: حاول مضاعفةَ العمل وبذلَ الجهد لينجح[٢]، ولا تكون الحركة إلا للجسم، وهو انتقال الجسم من مكان إلى مكان[٣].

ثانيا: السياق الخاص

نهى الله تعالى نبيهﷺ في هذه الآية عن التعجّل في حفظ القرآن مخافة أن يتفلّت منه، فقد كان رسول اللهﷺ يحرّك شفتيه ولسانه بالقرآن إذا أنزل عليه قبل فراغ جبريلعليه السلام من قراءة الوحي حرصا على أن يحفظهﷺ فنزلت هذه الآية[٤]، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ طه آية: ١١٤.

وردت الفريدة ﴿تُحَرِّكْ﴾ في القرآن الكريم مرة واحدة مع تكرر الموقف ذاته الذي يرشد فيه الله تعالى نبيَّهﷺ إلى كيفية تلقّي القرآن الكريم عن جبريل عليهعليه السلام وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ طه: ١١٤، ولكنّ المنهي عنه في آية سورة طه هو العجلة، بينما المنهي عنه في آية سورة القيامة هو تحريك اللسان، والفريدة ﴿تُحَرِّكْ﴾ لا تغني غناءها الفريدةُ ﴿تَعْجَلْ﴾ في

١- ينظر: معجم مقاييس اللغة، مادة (حرك)، ٢ / ٤٥؛ ولسان العرب، مادة (حرك)، ١٠ / ٤١٠.
٢- ينظر: معجم اللغة العربية المعاصرة مادة (حرك)، ١ / ٤٧٩.
٣- ينظر: المفردات في غريب القرآن، ص٢٢٩.
٤- ينظر: الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، تحقيق يوسف الغوش، ط٤، دار المعرفة، بيروت-لبنان، ١٤٢٨ه، ٧ / ٣٦٥.

سياق سورة القيامة، وحتى يتسنّى لنا تفسير الخاصيةّ الدلالية لاستعمال الفريدة ﴿تُحَرِّكۡ﴾ في سياقها دون الفريدة ﴿تَعۡجَلۡ﴾، كان لا بدّ من معرفة مفهوم هذه الفريدة، وربطها بسياقها الواردة فيه.

ثالثا: سرّ اختيار الفريدة ﴿لَا تُحَرِّكۡ﴾ في سياقها وأسرارها البلاغية

- جاءت الفريدة بصيغة المضارع الدالة على الاستمرار والتجدد، وهذا يوحي بأن آيات القرآن ستتتابع في نزولها على النبيﷺ وهي في تزايد، ولذلك نهاه الله تعالى عن تحريك لسانه حال نزول هذه الآية وفيما بعد إلى أن يكتمل نزول القرآن الكريم، وهذا إخبار عن الغيب بأنه سيكتمل، فسورة القيامة من أوائل ما نزل بمكة، وقد أخبرت عن تتابع نزول القرآن في المستقبل على النبيﷺ إلى أن يكتمل، وأن الله سيجمعه في قلبهﷺ، ووقع ذلك حقّا، فكان هذا إخبار عن الغيب، ودلّ على إعجاز القرآن ووقوع التحدّي به، فهل استطاع أحد من المشركين أن يحول دون نزول القرآن على النبيﷺ وهم يسمعون هذه الآية تخبر بتكفّل الله وَوَعْده بجمع القرآن في قلبهﷺ؟!

- دلت الفريدة ﴿لَا تُحَرِّكۡ﴾ على آداب تلقّي النبيﷺ القرآن من جبريلعليه السلام، وقد نُهي النبيﷺ عن تحريك لسانه والمبادرة إلى حفظه قبل أن يُقضى إليه بالوحي؛ وقد يكون هذا النهي لما فيه من عدم الفهم، فَأُمر أن يصغي إلى جبريلعليه السلام بقلبه إلى أن يُقضى إليه بالوحي.

- بيّن الله تعالى مدى النهي عن العجلة ومدتها[١] في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥ﴾ طه: ١١٤، ولكنه لم يبيّن ذلك في آية سورة القيامة الواردة فيها الفريدة ﴿لَا تُحَرِّكۡ﴾، بل بيّن سبحانه كيفية العجلة بتحريك اللسان؛ ولعل ذلك مناسبة لمقصد سورة القيامة القائم على إظهار

١- ينظر: أضواء البيان، ٨/ ٣٧٤.

قدرة الله، فاكتساب العلم وحفظه لا يكون إلا بتوفيق الله تعالى[1]، ولذا فمجيء هذه الفريدة لإرشاد النبي ﷺ إلى عدم الاستعانة في طلب الحفظ بالترجيع وتحريك اللسان بل يطلبه من الله تعالى وقد تكفل الله بحفظه.

- نَهْي المولى سبحانه نبيهﷺ في الفريدة ﴿لَا تُحَرِّكۡ﴾ عن تحريك لسانه في تلقي القرآن مع كونه أميا ثم جَمْع القرآن في قلبه من غير دراسة ولا تكرار وحفظها لمجرد سماعه لها، وتبليغها دون نسيان على مرّ الزمن أمر خارق للعادة يدل على كون القرآن معجزا، وتنبيها على أنهﷺ لا كسب له في هذا القرآن بغير حسن التلقي إبعادا له عن قول البشر، وإثباتا لنبوّتهﷺ، وتمهيدا بما يحرك من لسانه بالقرآن قبل تمام الإلقاء لذمّ ما طبع عليه الإنسان من العجلة[2] الواردة في قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ﴾ القيامة: ٢٠.

- تدلّ الفريدة ﴿لَا تُحَرِّكۡ﴾ على تلقّي النبيﷺ ما يوحى إليه على عجلة، وهذا يوحي بحرص النبيﷺ وكمال اعتنائه بتلقّي القرآن خشية أن يتفلّت منه، كما يوحي بمزيد حبهﷺ للقرآن وحرصه على أداء الرسالة، قال عامر الشعبيّ[3]: «إنما كان يعجل بذكره إذا نزل عليه من حبّه له، وحلاوته في لسانه، فنُهي عن ذلك حتى يجتمع؛ لأن بعضه مرتبط ببعض»[4].

١- ينظر: مفاتيح الغيب، ٣٠/ ١٩٧.
٢- ينظر: المرجع السابق، ٣١/ ١٢٨؛ ونظم الدرر، ٨/ ٢٤٩.
٣- عَامرُ بنُ شَرَاحِيْلَ بن عَبْد بن ذي كِبَار، وَذُوْ كِبَار: قَيْلٌ مِنْ أَقْيَالِ اليَمن، الشَّعْبِيُّ الحميري، أبو عمرو: راوية، من التابعين، يضرب المَثَل بحفظه، ولد ونشأ ومات فجأة بالكوفة، اتصل بعبد الملك بن مروان، فكان نديمه وسميره ورسوله إلى ملك الروم، وكان ضئيلا نحيفا، ولد لسبعة أشهر، وسئل عما بلغ إليه حفظه، فقال: ما كتبت سوداء في بيضاء، ولا حدثني رجل بحديث إلا حفظته، وهو من رجال الحديث الثقات، استقضاه عمر بن عبد العزيز، وكان فقيها، شاعرا، واختلفوا في اسم أبيه فقيل: شراحيل وقيل: عبد الله، نسبته إلى شعب وهو بطن من همدان، وفيه أقوال في وفاته: سنة ١٠٣ و١٠٤ و١٠٥ و١٠٦ و١٠٧. ينظر: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي، سير أعلام النبلاء، المحقق: مجموعة محققين بإشراف شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ٧/ ٣٢٩، وخير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي، الأعلام، دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٢م، ٣/ ٢٥١-٢٥٢.
٤- ينظر: الجامع لأحكام القرآن، ١٩/ ١٠٦؛ وروح المعاني، ١٥/ ١٥٧.

- تدل الفريدة ﴿لَا تُحَرِّكْ﴾ على نَهْي النبيﷺ عن مسارعة جبريل عليه السلام في قراءته لما يوحى إليه، وهذا يدلّ على أنّ القراءة لا تكون إلا بتحريك اللسان بالحروف، وقد نقل ابن رشد في «البيان والتحصيل» عن الإمام مالك رحمه الله تعالى أنه سئل عن الذي يقرأ في الصلاة، لا يُسمِع أحدا ولا نفسه، ولا يحرك به لسانا، فقال: «ليست هذه قراءة، وإنما القراءة ما حرك له اللسان»[(١)].

- تدل الفريدة ﴿لَا تُحَرِّكْ﴾ على أن عملية تلقي النبيﷺ للقرآن كاملا كان في اليقظة، يقول أبو شهبة: «والقرآن الكريم لم ينزل شيء منه إلا عن طريق جبريل عليه السلام ولم يأت شيء منه عن تكليم أو إلهام أو منام، بل كله أوحي به في اليقظة وحيا جليّا»[(٢)].

- ومما تجدر الإشارة إليه أن الفريدة ﴿لَا تُحَرِّكْ﴾ لا تدلّ فقط على فرادتها في استعمال القرآن وحسب، بل تومئ بتفرّد القرآن عن الكتب السماوية بتكفّل الله تعالى بحفظه المطلق له، ولذلك تَفرُّد هذه اللفظة في القرآن الكريم فيه دلالة على تفرّد المولى سبحانه بحفظ القرآن، أي: لا تحرّك بالقرآن لسانك حال نزول هذه الآية وفيما بعد إلى أن يكتمل نزول القرآن الكريم، ولا تخش تفلّته منك، وليس لك إلا تلقّي القرآن وتبليغه؛ لأن الله تكفّل بحفظه، وأعفاك من مؤنة المشقّة في تحصيله، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ الحجر: ٩، يقول ابن كثير: «أنه عليه السلام كان إذا جاءه جبريل بالوحي، كلما قال جبريل آية قالها معه، من شدّة حرصه على حفظ القرآن، فأرشده الله تعالى إلى ما هو الأسهل والأخف في حقه؛ لئلا يشق عليه. فقال: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴾ القيامة: ١٦-١٧، أي: أن

١- ابن رشد القرطبي، البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل في مسائل المستخرجة، تحقيق محمد حجي وآخرين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٤٠٨هـ، ١ / ٤٩١.

٢- محمد بن سويلم أبو شُهبة، المدخل لدراسة القرآن الكريم، مكتبة السنة، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٣م، ص٦٣.

نجمعه في صدرك، ثم تقرأه على الناس من غير أن تنسى منه شيئًا»[1].

- إنّ تسجيل القرآن الكريم لحادثة تلقي النبيﷺ للقرآن الكريم له دلالته الخاصّة في تفرّد القرآن بكونه خاتم الشرائع السماوية وناسخها، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ ﴾ آل عمران: ١٩، وبذلك أصبح القرآن الكريم كالجوهرة النفيسة وكالدرّ الذي يفصل بين الذهب (الكتب السماوية) في القلادة المفصّلة، فالدر(القرآن) فيها فريد والذهب (الكتب السماوية) مفرّد.

١- ابن كثير في تفسيره. ينظر: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد سلامة، ط٢، الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م، ٥/ ٣١٩.

الخاتمة

وتشتمل على أهم النتائج والتوصيات:

أولا: النتائج

١- من عادات القرآن الكريم الأسلوبية استعماله في الحديث عنه فرائد، وهي متمكّنة دلاليا من سياقها ويتلاءم معناها مع معنى ما يجاورها من الألفاظ داخل التركيب، ويرتبط تمكّن الفريدة بالعلاقات بين البنى المتوالية للنص بأكمله على وفق مناسبة اللفظة لمعناها وسياقها الذي استدعاها، وهذه العلاقات المتماسكة بين هذه العناصر مجتمعة تمكّن الفريدة دلاليا من التفرّد في سياقها بحيث تؤدي المعنى المسوقة من أجله بدقة ولا تغني لفظة أخرى تقترب من دلالتها العامة غناءَها.

٢- عكست الفرائد محل الدراسة فرادتها في استعمال القرآن، وليس ذلك فحسب بل عكس بعضها كذلك تفرّد القرآن ذاته بها، كما في الفرائد ﴿تَفۡسِيرًا﴾ و﴿لَا تُحَرِّكۡ﴾، التي دلّت على تفرّد القرآن في كونه أحسن تفسيرا وأنه محفوظ بحفظ المولى سبحانه.

٣- عكست الفرائد فرادةَ الحدث المسوق في الآية، كما في الفريدة ﴿لَا تُحَرِّكۡ﴾ فقد دلّت على فرادة حادثة تلقّي النبيﷺ للقرآن من جبريل‍عليه السلام، والفريدة ﴿عِضِينَ﴾ التي دلّت على فرادة وغرابة قسمة المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين.

٤- عكست الفرائد تفرّد القرآن بمنهجه في معالجة إعراض الكفار وتحريفاتهم للقرآن من خلال وصفهم بأوصاف فريدة تنبئ عن طباع فريدة لهم، فناسب منهجُ القرآن الفريد في ذلك طبائعَهم الفريدة، وذلك من خلال الفرائد ﴿رَانَ﴾ و ﴿أَقۡفَالُهَآ﴾ و﴿يَنۡعِقُ﴾ و ﴿عِضِينَ﴾.

٥- عكست الفرائد تفرّد القرآن بمنهجه في محاجّة الكفار بالحجة والبرهان، وذلك من خلال الفريدة ﴿تَفۡسِيرًا﴾، وفي ذلك إشارة دعَوية وهي من باب قوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ النحل: ١٢٥.

٦- تعلّق القلب بالله تعالى لا بالأسباب الدنيوية، وأن تحصيل العلم لا يكون إلا بتوفيق الله تعالى، وذلك من خلال الفريدة ﴿لَا تُحَرِّكۡ﴾.

ثانيا: التوصيات

١- مواصلة رَصْد الفرائد في القرآن الكريم بشكل عام، والفرائد الواردة بشأن الموضوعات القرآنية التي تناولتها الفرائد القرآنية على وجه الخصوص، ودراستها بطريقة أكثر عمقا، وأحسن عرضا، وأشمل نفعا.

٢- تجديد قراءتنا للقرآن الكريم ومدارسته بما يحقق تدبر القرآن الكريم، وبما يعمل على التصدّي لمشاريع الطاعنين في القرآن الكريم التي تهدف إلى هدم الدين.

قائمة المصادر والمراجع

- الآلوسي، محمود بن عبد الله (ت ١٣٩٣هـ)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ط، ١٤١٥هـ.
- الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد (ت٣٧٠هـ)، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، مادة (عرض)، دار إحياء التراث العربي-بيروت-٢٠٠١م.
- البسوميّ، باسم سعيد، معجم الفرائد القرآنية، مركز نون للدراسات والأبحاث القرآنية، رام الله، د. ط، ١٤٢٢هـ.
- البقاعي، إبراهيم بن عمر (ت٨٨٥هـ)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، بيروت، دار الكتب العلمية د. ط، ١٤١٥هـ -١٩٩٥م.
- الرازي، محمد بن عمر (ت٦٠٦هـ)، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ.
- الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد (ت٥٠٢هـ)، المفردات في غريب القرآن، تحقيق صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق، بيروت، ط١، ١٤١٢ه.
- الزرقاني، محمد عبد العظيم (ت١٣٦٧هـ)، مناهل العرفان في علوم القرآن، مصر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط٣، ١٣٦٢هـ-١٩٤٣م).
- السعران، محمود، علم اللغة مقدّمة للقارئ العربي، القاهرة: دار الفكر العربي، ط٢، ١٩٩٧م.
- أبو السعود العمادي، محمد بن مصطفى (ت٩٨٢هـ)، تفسير أبي السعود أو إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، وضع حواشيه عبد اللطيف عبد الرحمن، بيروت-لبنان، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٩هـ.
- ابن السكيت، يعقوب بن إسحاق (ت٢٤٤هـ)، إصلاح المنطق، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، ط٤، ١٩٤٩م.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (ت٩١١هـ)، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمود القيسية ومحمد الأتاسي، ط١، أبو ظبي: مؤسسة النداء، ٢٠٠٣م.

- الشاطبي، إبراهيم بن موسى (ت٧٩٠هـ)، الموافقات، تحقيق مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، د. م، ط١، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.
- الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد (ت١٣٩٣هـ)، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، د. ط، بيروت-لبنان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٥م.
- أبو شُهبة، محمد بن سويلم (ت١٤٠٣هـ)، المدخل لدراسة القرآن الكريم، مكتبة السنة، القاهرة، ط٢، ١٤٢٣هـ.
- الشوكاني، محمد بن علي (ت١٢٥٠هـ)، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، تحقيق يوسف الغوش، ط٤، دار المعرفة، بيروت-لبنان، ١٤٢٨هـ.
- الطبري محمد بن جرير(ت٣١٠هـ)، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة ط١، ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠م.
- ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد (ت١٣٩٣هـ)، التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد». (د. ط، تونس: دار سحنون، ١٩٩٧م).
- عباس، حسن، خصائص الحروف العربية ومعانيها-دراسة-، دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب، د. ط، ١٩٩٨.
- عمر، أحمد مختار(ت١٤٢٤هـ)، معجم اللغة العربية المعاصرة، ط١، د. م: عالم الكتب، ١٤٢٩هـ.
- ابن فارس، أحمد بن زكريا (ت٣٩٥هـ)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، د. م، د. ط، ١٣٩٩هـ -١٩٧٩م).
- القرطبي، ابن رشد (ت٥٢٠هـ)، البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل في مسائل المستخرجة، تحقيق محمد حجي وآخرين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٤٠٨هـ.
- القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح شمس الدين(ت٦٧١هـ)، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق سمير البخاري، د. ط، الرياض: دار عالم الكتب، ٢٠٠٣م.
- أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، تحقيق محمد سليم، دار العلم، القاهرة، د. ط، د. ت).

References:

- Al-Alusi, Mahmoud bin Abdullah (1393 AH), Spirit of meanings in the interpretation of the great Qur'an and the seven motions, investigation by Ali Abdel-Bari Attia, Dar Al-Kutub Al-Alami, Beirut, without edition, 1415 A.H.
- Al-Azhari, Abu Mansour Muhammad bin Ahmed (370 AH), Refining the Language, Investigation: Muhammad Awad Marab, Article (Presentation), Arab Heritage Revival House - Beirut - 2001.
- Al-Bassoumi, Basem Saeed, Glossary of Quranic Verses, Noun Center for Qur›anic Studies and Research, Ramallah, without edition, 1422 AH.
- Al-Beqai, Ibrahim bin Omar (885 AH), organized the pearls in proportion to verses and fences, Beirut, Dar Al-Kutub Al-Alami, without edition, 1415 AH-1995.
- Al-Razi, Muhammad bin Omar (606 AH), The Keys of the Unseen, The House of Arab Heritage Revival, Beirut, 3rd edition, 1420 AH.
- Ragheb Al-Isfahani, Al-Hussain Bin Muhammad (502 AH), Vocabulary in Gharib Al-Qur'an, Investigation by Safwan Adnan Al-Dawoudi, Dar Al-Qalam, Al-Sham Al-Shamiya, Damascus, Beirut, 1st edition, 1412 AH.
- Al-Zarqani, Muhammad Abd al-Azim (1367 AH), Manahil Al-Irfan in the Sciences of the Qur'an, Egypt: Issa Al-Babi Al-Halabi and Company Press, 3rd edition, 1362 AH -1943 A.D.
- Alsueranu, Mahmoud, Linguistics Introduction to the Arab Reader, Cairo: Dar Al-Fikr Al-Arabi, 2nd edition, 1997 AD.
- Abu al-Saud al-Emadi, Muhammad ibn Mustafa (982 AH), the interpretation of Abu al-Saud or guiding the sound mind to the merits of the Holy Book, put his footnotes Abdel Latif Abdel Rahman, Beirut-Lebanon, Dar Al-Kutub Al-Alami, 1st edition, 1419 AH.
- Ibn al-Sakit, Ya`qub ibn Ishaq (244 AH), ‹iislah almuntiq, Investigation of Ahmed Muhammad Shaker and Abd al-Salam Muhammad Harun, Dar al-Ma`rif, Cairo, 4th edition, 1949.
- Al-Suyuti, Jalaluddin Abdul Rahman (911 AH), Perfection in the Sciences of the Qur'an, investigation by Mahmoud al-Qaysiyyah and Muhammad al-Atassi, 1st edition, Abu Dhabi: Al-Nida Foundation, 2003AD.
- Al-Shatby, Ibrahim bin Musa (790 AH), Al-Mwafatat, investigation by Mashour bin Hassan Al Salman, Dar Ibn Affan, d. M, 1st floor, 1417AH-1997AD.

- Al-Shanqeeti, Muhammad al-Amin bin Muhammad (1393 AH), the lights of the statement in clarifying the Qur'an in the Qur'an, d. I, Beirut-Lebanon: Dar Al-Fikr for printing, publishing and distribution, 1995 AD.
- Abu Shahba, Muhammad ibn Swailem (1403 AH), Introduction to the Study of the Noble Qur'an, Sunnah Library, Cairo, 2nd edition, 1423 AH.
- Al-Shawkani, Muhammad bin Ali (1250 AH), fath alqadir, combining the art of novel and know-how from the science of interpretation, the investigation of Youssef Al-Ghosh, 4th edition, Dar Al-Maarifa, Beirut-Lebanon, 1428 AH.
- Al-Tabari Muhammad bin Jarir (310 AH), jamie albayan in the interpretation of the Qur'an, investigation by Ahmed Muhammad Shaker, Al-Resala Foundation, 1st floor, 1420 AH-2000.
- Ibn Ashour, Muhammad al-Tahir bin Muhammad (1393 AH), "Editing and Enlightenment" Editing the Good Meaning and Enlightening the New Mind from the Interpretation of the Glorious Book. "(Dr. I, Tunis: Dar Sahnoun, 1997 AD).
- Abbas, Hasan, Characteristics and Meaning of Arabic Letters - Study -, Damascus: Publications of the Union of Arab Writers, without edition, 1998.
- Omar, Ahmad Mukhtar (1424 AH), A Dictionary of Contemporary Arabic Language, 1st edition, d. M: The World of Books, 1429 AH.
- Ibn Faris, Ahmed bin Zakaria (395 AH), Dictionary of Language Standards, investigation by Abd al-Salam Haroun, Dar al-Fikr, d. M., D. I, 1399 AH -1979 AD.
- Al-Qurtubi, Ibn Rushd (520 AH), albayan waltahsil walshurh waltawjih waltaelil fi masayil almustakhrajati, the investigation of Muhammad Hajji and others, Dar al-Gharb al-Islami, Beirut, 2nd edition, 1408 AH.
- Al-Qurtubi, Muhammad ibn Ahmad ibn Abi Bakr ibn Farah Shams al-Din (671 AH), aljamie of Ahkam al-Qur'an, investigation by Samir al-Bukhari, d I, Riyadh: House of Books World, 2003.
- Abu Hilal Al-Askari, Linguistic Differences, Muhammad Salim Investigation, Dar Al-Alam, Cairo, without edition, No publishing date.

Contents



UNITED ARAB EMIRATES - DUBAI
AL WASL UNIVERSITY

AL WASL UNIVERSITY JOURNAL

Specialized in Humanities and Social Sciences

A Peer-Reviewed Journal

ISSUE NO. 62
Dhu al-Qa'dah 1442H - June 2021CE

ISSN 1607- 209X

This Journal is listed in the **"Ulrich's International Periodicals Directory"**
under record No. 157016
e-mail: research@alwasl.ac.ae, awuj@alwasl.ac.ae



UNITED ARAB EMIRATES-DUBAI
AL WASL UNIVERSITY

Al Wasl University Journal

Specialized in Humanities and Social Sciences

A Peer-Reviewed Journal - Biannual

(The 1st Issue published in 1410 H - 1990 C)

June - Dhu al-Qa'dah
2021 CE / 1442 H

62

Issue No. 62

Email: research@alwasl.ac.ae
Website: www.alwasl.ac.ae